تعليمية البلاغة العربية بين الإحساس والقياس

أ. د. رضا جوامع

ridajouamaa@hotmail.com

قسم اللغة العربية، جامعة تبسة

ملخص:

يروم الباحث على امتداد هذه الورقة إلى دراسة مدى صلاحية المفاهيم البلاغية القديمة في مناهجنا الدراسية الراهنة، من حيث خصوصيتها الإفرادية والدلالية والسياقية، وملاءمتها للمتعلم، وموافقتها لواقعنا اللساني والعلمي والتربوي والاجتماعي. إن هذا الضرب من الدراسات متعدد الزوايا، ومختلف المداخل.

وقد توصلت هذه الدراسة التي نتائج أبرزها أن مادة البلاغة مفتوحة على كل جديد في الحياة الأدبية المعاصرة، والواقع يؤكد أن تلك المادة على صعيد الكتب المقررة منغلقة عند فترة زمنية معينة، أي أن الكثير من الإبداعات الأدبية التي تم إنتاجها بعد هاته الفترة لا يلقى أذنا صاغية، أو اهتماما كافيا به. كما أن البلاغة من حيث هي الاستعمال الفعلي، غير النظرية التحليلية لكيفية اختيار الوحدات الإفرادية الموظفة لغرض تأثيري معين. وعليه فإن التركيز على تعليم القواعد البلاغية، وإغفال مقدرة المتعلم على التعبير عن حاجاته التخاطبية، من شأنه أن يوصل إلى إكساب هذا المتعلم ملكة بلاغية مبتورة.

Résumé:

Sans nul doute que le changement à touché tout les aspects de la vie, même le goût, l'appréciation esthétique et l'appréhension de la beauté. Cela a engendré des termes, des concepts et des discours nouveaux, qui ont été ignoré par les concepteurs des programmes dans l'élaboration de ces programmes et livres scolaires, puisque la réalité dans les classes que l'étude de langue en général, et de la rhétorique en particulier, débattue entre nous (chercheurs et enseignants) est étranger au élèves.

Pour cela, nous essayons à travers cette approche d'étudier convenabilité des concepts de la rhétorique ancienne dans nos programmes d'enseignements actuels, du point de vue morphologique, sémantique, et contextuel, de son appropriation à l'apprenant, et de son affinité avec notre réalité linguistique, pédagogique, et sociale.

مقدمة

البلاغة العربية أبيّة المراس، تأنف من التعقيد، ووضع الخطوط لدراستها، لأنها الابنة المدلّلة للذوق. غير أن هذا هو مناط الثريا بالنسبة لمناهجنا التربوية الراهنة، إذ الحاصل أن المعرفة البلاغية التي نتدارسها في غرفنا الصفية، قواعد صنعة، وإجراءات تلقينية، وقوالب صماء، يتجرعها المتعلمون تجرّعا عقيما، بدلا من أن يتعلّموها لسان امّة ولغة حياة. وعوملت البلاغة ــ تنظيرا وتدريسا وتدريبا ــ معاملة النحو، مع أنها لا تبحث عن صحة الكلام، وخضوعه للتعاقد الاجتماعي، بل تبحث عن الخواص التي ما إن توافرت في نتاج أدبي توشّى بالبلاغة، أو بعبارة أخرى، إنها تبحث عن الجمال لا عن الصحة. والجمال أرحب أفقا، وأكثر حرية من هذا الأفق الضيق.

إضافة إلى أن هذه الكينونة البلاغية المُدرّسة قد قذفها الزمن البعيد إلينا، ولم تُمرّر على محكّات الوظيفية، ومستوى متعلم هذا الزمن، وخصوصياته الذهنية والانفعالية والوجدانية، فهي بناء على ذلك خطاب غريب، يلقيه المتمدرس وراء ظهره، إن خرج من أبواب الصف. فالمناهج التّربويّة بعامة، ومناهج تدريس اللغة العربيّة بخاصة، في مهبّ الأسئلة تشهد تشظّ يهدّد مستقبل المتعلّمين، حيث صارت رغما عنها في مواجهة متغيّرات اللغة، والفكر، والثّقافة، ومستحدثات العلم. عليها أنْ تتعامل معها تحت ظرف الحتميّة والإجبار، وإلاّ تحوّلت من مناهج حيّة وفعّالة إلى بقايا أنثروبولوجية هامشيّة.

المشكلة المحوريّة وتساؤلات الدّراسة:

إلى أي مدى يمكننا التحدث عن فكر بلاغي في مناهج اللغة العربية للمنظومة التربوية العربية بعامة والجزائرية بخاصة؟ وما هي مادة هذا الفكر وموضوعه؟ أهي فن أداء الحقيقة؟ أم هي الكذب والدّجل ونصب الأشراك؟ أم هي اجتماع أنماط ونماذج قذف بها إلينا الزمن البعيد؟ ووَسَمها القصور على مناغمة روح العصر، وعلمها العقم في جدواها، إن نحن استقصيناها في واقعنا اللغوي والأدبي؟

يُحتّم علينا الرد هنا أن نسبر أغوار تراثنا العربي وخباياه بهدف استنطاق نصوصه التي تناولت مفهوم البلاغة، وإن كان مُكتنفاً في ثنايا اجتهادات ومقاربات هي أقرب إلى الموسوعية منها إلى التخصص والاستقلالية. وحتى لا نقف عند مجرد العرض، رأينا أن نلقي ضوءا من الماضي على الحاضر، ابتغاء الوقوف على المفهوم البلاغي المُتبنى في مناهجنا الدراسية.

البلاغة: بحث في جينيالوجيا المصطلح وخصوصية المفهوم.

يتصدر المحور اللغوي جملة المحاور التي يدور حولها مفهوم البلاغة، وهو محور يرتكز عليه "أبو هلال العسكري" في قوله: "البلاغة من قولهم بلغتُ الغاية إذا انتهيتُ إليها، وبلّغتُها غيري، ومبلغ الشيء: منتهاه. والمبالغة في الشيء: الانتهاء إلى غايته، فسُميت البلاغة بلاغة لأنها تُنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه".[1]

ينطلق هذا المفهوم من قاعدة لغوية تفيد الأصل الذي اشتقت منه لفظة البلاغة، وكذلك معاني اشتقاقها، والتي تخلص كلها إلى الانتهاء، ليشرع بعد ذلك تسمية البلاغة بالبلاغة، فتغدو هذه التسمية نتيجة منطقية لمفاهيم الإبلاغ.[2]

ولا يقف المفهوم عن حد اللغة، بل يتعداه إلى الوظيفة البلاغية التي تقتصر على الإفهام، لأن مجرد إنهاء المعنى إلى قلب السامع لا يحقق الغرض من البلاغة، إذ يبقى المعنى حبيس قلب السامع مبتورا من الفائدة.

ونظرا لقيمة الفهم والإفهام في تكوين التصور البلاغي، قدّمهما "عبد الله بن محمد بن جميل" إلى بؤرة تصوّره لمفهوم البلاغة، في قوله: "البلاغة الفهم والإفهام، وكشف قناع المعاني بالكلام، ومعرفة الإعراب والاتساع في اللفظ، والسداد في النظم، والمعرفة بالقصد، والبيان في الأداء، وصواب الإشارة، وإيضاح الدلالة،

---

[1]- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله، **الصناعتين**، تحقيق مفيد قميحة، ط2 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1989)، ص. 15.

[2] - وقد نحا "ابن منظور" هذا المنحى في بيانه لمعاني مادة (بلغ)، حيث أورد: بلغ الشيء. يبلغ بلوغا وبلاغا: وصل وانتهى، والإبلاغ: الإيصال، وكذلك التبليغ. انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، المجلد 6، ط 3 (بيروت: 1994).

والمعرفة بساعات القول، والاكتفاء بالاختصار عن الإكثار، وإمضاء العزم على حكومة الاختيار."[1]

تنطلق البلاغة على أساس ما عرض من النص من ثنائية الفهم والإفهام التي تفطن "الجاحظ" إلى أهميتها. وتكمن سعة هذه الثنائية في أنها غاية المتكلم والسامع معا.[2] غير أن "الجاحظ" زاد المفهوم السابق للبلاغة تعميقا، ذلك أن عملية الفهم والإفهام لا تنبت من فراغ، وإنما تحصل نتيجة شراكة يمثل لها "الجاحظ" في قوله: "والمُفهم لك، والمتفهم عنك شريكان في الفضل، إلا أن المُفهم أفضل من المتفهم، وكذلك المعلم والمتعلم".[3]

ويواصل مفهوم البلاغة من منظور "عبد الله بن محمد" نموّه، حينما تتعدى البلاغة إلى توضيح المعاني باستخدام الألفاظ؛ أو بعبارة أخرى ترجمة ما انتهى إلى القلب من المعاني باستعمال آلة البيان. فالبلاغة بهذا المفهوم ليست بلاغة، أو هي قاصرة مبتورة، ما بقيت المعاني مستترة. أما معرفة الإعراب والاتساع في اللفظ فيمثلان شرطا أساسيا لما قبلهما؛ أي التمكن من كشف قناع المعاني، لأن الإعراب وحده من يكفل تمييز معاني البنيات اللغوية، ومن ثمة معرفة أغراض المتكلمين.[4]

ويوائم مفهوم البلاغة على أنها السداد في النظم تحديد "المبرد" لشروط البلاغة في قوله: "إن حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام وحسن النظم، متى تكون الكلمة مقاربة أختها، ومعاضدة شكلها. وأن يُقرّب بها البعيد،

---

[1] - أبو الحسن بن رشيق القيرواني، **العمدة في صناعة الشعر ونقده**، تحقيق النبوي عبد الواحد شعلان ج1 (القاهرة: مكتبة الخانجي، 2000)، ، ص. 393.

[2] - الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج1 (بيروت: دار الجيل، د.ت)، ص. 96.

[3] - المرجع نفسه، ص ص. 11- 12.

[4] - بشير إبرير، **توظيف النظرية التبليغية في تدريس النصوص في المدارس الثانوية الجزائرية**، أطروحة دكتوراه غير منشورة، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة عنابة، الجزائر، 2000، ص. 21.

ويُحذق منها الفضول."[1] فالسداد في اختيار الألفاظ وتنظيمها في سلسلة كلامية تخلو من التعقيد[2] من شأنه أن يُوضّح المستعصي، ويحذف الحشو.

إن الإنعام في مسألة اختيار الألفاظ وتنظيمها من منظور "عبد الله بن محمد بن جميل" و"المبرد" يكشف عن قصور هذا الاختيار من ناحية المجال (مجال الاختيار)، الأمر الذي يدعو إلى التساؤل: أي الألفاظ نختار؟ أطولها أم أقصرها؟ أعقدها أم أبسطها؟ وفي تقديري أن أكفأ رد ما صدر عن "إبراهيم بن محمد بن المدبر" في معرض حديثه عن البليغ: "فأدرر الألفاظ على أعكانها، واعرضها على معانيها، وقلّبها على جميع وجوهها. فأي لفظة رأيتَها في المكان الذي ندبتها إليه، فانزعها إلى المكان الذي أوردتها عليه، وأوقفها فيه. ولا تجعل اللفظة قلقة في موضعها. نافرة عن مكانها. فإنك متى فعلتَ هجنتَ الموضع الذي حاولتَ تحسينه، وأفسدتَ المكان الذي أردتَ إصلاحه. فإنَّ وضع الألفاظ في غير أماكنها، وقصدك بها إلى غير نصابها، إنما هو كترقيع الثوب الذي إذا لم تتشابه رقاعه، ولم تتقارب أجزاؤه، خرج من حد الجدة، وتغير حسنه."[3]

إن المعرفة بالقصد تُصيِّر إلى البيان في الأداء، وكلاهما بلاغة. فالأولى توجب أن يكون المتكلم عارفا بمقاصد الكلام، والمعنى الذي يتوخى تبليغه. وهذه نظرة تنطلق من قاعدة سيكولوجية. كما يمكن أن تكون المعرفة بالقصد من منظور تركيبي ومعجمي معرفة بمواضع الكلام؛ بمعنى أن يوفي المتكلم قواعد التركيب حقها، فيقدّم ويؤخر بغاية. وتعني الثانية التي هي البيان في الأداء، إعراب المتكلم أثناء التأدية الكلامية. وهذه نتيجة منطقية لمعرفة بنية التخاطب.

---

[1]- المبرد أبو العباس محمد بن يزيد، **الكامل في اللغة والأدب**، تحقيق تغاريد بيضون ونعيم زرزور، ط2، ج1، (بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، 1989)، ص.28.

[2]- التعقيد وهو ألا يكون الكلام بين الدلالة على المعنى المنشود. وهو نوعان: التعقيد اللفظي؛ وهو خلل في نظم الألفاظ وتركيبها، بحيث لا يراعى في ترتيب هذه الألفاظ ترتيب المعاني. والتعقيد المعنوي؛ وهو غياب المعنى المراد مع حضور المعنى الدال عليه. للاستزادة في هذا الموضوع، انظر، أحمد مصطفى المراغي، **علوم البلاغة، البيان والمعاني والبديع**، (بيروت: دار القلم، د.ت)، ص ص. 30- 35.

[3]- "الرسالة العذراء" لإبراهيم بن محمد بن المدبر، نقلا عن خالد أبو إصبع، **نصوص تراثية في ضوء علم الاتصال الحديث**، (عمان، الأردن: دار آرام للطباعة والنشر، 2000)، ص. 235.

ومن أجل ألا يوقف "عبد الله بن محمد بن جميل" البلاغة على اللغة اللفظية فحسب، تحدَّث في نصه عن اللغة غير اللفظية من خلال مصطلح "صواب الإشارة". فالمتكلم صائب الإشارة، بليغ في رأي صاحب النص.

ولما كانت الإيماءات والحركات الجسمية لغة لها مكانتها وسعتها في التواصل البشري، أولاها البلغاء أهمية، وفي صدارتهم "الجاحظ" من خلال حديثه: "أمّا الإشارة فباليد وبالرأس، وبالعين وبالحاجب وبالمنكب، إذا تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسيف".[1]

يقدّم "الجاحظ" مواطن الإشارة، وهي اليد والرأس والعين والحاجب والمنكب والثوب والسيف، غير أنه لا يكتفي بعرض هذه الأعضاء التي تصدر عنها الإشارة، بل يعرض كيفيات صدورها على مستوى كل موضع في قوله: "فأمّا الإشارة فأقرب المفهوم منها: رفع الحواجب وكسر الأجفان، ولَيُّ الشفاه، وتحريك الأعناق، وقبض جلدة الوجه. وأبعدها أن تلوي بثوب على مقطع جبل تجاه عين الناظر."[2]

على الرغم من أن المواقف الخطابية تستدعي حضور الإشارة لا العبارة أحيانا، إلا أننا نُرجِّح أن المقصود بالإشارة في نص "عبد الله بن محمد بن جميل" هو الإيحاء لا الإيماء. وهو أن يشير المتكلم في معرض حديثه إلى موضوع أو شخص ما، بألفاظ ودلالات غير صريحة، لكنها تُبلِّغ المعنى وتُنهي إلى الإرادة.[3]

ويستمد ترجيحنا هذا مشروعيته بالقرينة البعدية المتمثلة في "إيضاح الدلالة"، والتي هي شرط من شروط البليغ. إذ يجب عليه ألاّ يورد كلامه مُعمًّا وعاما. ولما جاورت الإشارة الدلالة لا الكلام، كان القصد هو وضوح دلالة الموضوع المُراد الإيحاء إليه، لا المُراد الإيماء عليه. وأما المعرفة بساعات القول، فهي وصف للكلام والمتكلم على حد سواء. وهي أيضا مطابقة الكلام لمقتضى حال الخطاب مع اعتماد

---

[1] - الجاحظ، **البيان**، المرجع السابق، ص. 77.
[2] - الجاحظ، **الحيوان**، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، (بيروت: دار الجيل، 1996)، ج1، ص. 48.
[3] - يشترط في هذا النوع من التبليغ أن يكون بين المتخاطبين التشفير نفسه.

الفصاحة في إيراد ألفاظه مفردها ومركبها.[1] فإن كانت الحال إنكارا من المخاطب مثلا، كان المقتضى توكيدا، لأنه هو المناسب لحال الإنكار. وإن كانت الحال ذكاء في المخاطب، كان المقتضى هو الإيجاز في الكلام، لأنه هو المناسب لحال اللبيب الذي يفهم بالإشارة. وإن كانت الحال غباء في المخاطب، كان المقتضى إطنابا وإطالة، لأنه هو المناسب لحال البليد الذي لا يفهم إلا بالتصريح والتكرار. فلا غرو إذن، إذا ما سحبنا صفة البلاغة على القرآن الكريم استنادا إلى عامل مراعاة أحوال المخاطب. فهو الذي "إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل، أو حكى عنهم، جعله مبسوطا وزاد في الكلام."[2]

ومما لاشك فيه أن لهذه المطابقة تأثيرا بالغا في الكلام، حيث يتحدد سُموّه أو انحطاطه بمدى مطابقته لمقتضى الحال. ولعل خير شاهد نورده لبيان مصداقية الذي سلف، ما رُوي عن "بشار" الشاعر الأعجمي الذي سُئِل من قِبَل أحد معاصريه عن الهجين المتفاوت الذي أتى به في شعره. قال: وما ذاك؟ قلتُ: بينما تقول شعرا تثير به النقع، وتخلع القلوب مثل قولك:

إذا ما غضِبْنــا غَضبَةً مُضَرِيَّــة هَتَكْنَا حِجابَ الشَّمس أو تَقطُرَ الدّما
إذا ما أعَرنــا سيّدا من قبيلــة ذرى منــبر صــلّى علينــا وسلّما

تقول:

ربابة ربـــة البيــت تَصب الخل فــي الزيــت
لها عشر دجاجـــات وديــك حــسن الصــوت

فقال: لكل وجه وموضع. فالقول الأول جدّ. وهذا قلته في "ربابة" جاريتي. وأنا لا آكل البيض من السوق. وربابة لها عشر دجاجات وديك. فهي تجمع لي

---

[1]- انظر، السيد أحمد الهاشمي، **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع** ط6 (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت)، ص. 29.
[2]- الجاحظ، **الحيوان**، ج1، ص. 94.

البيض وتحفظه عندها. فهذا عندها من قولي أحسن من "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل" عندك.[1]

وجدير بالإشارة أن مراعاة أحوال المخاطب، ووضع الكلام موضعه من طول أو إيجاز مع حسن العبارة[2] لم يسهب فيها أحد كالجاحظ. إذ هداه عقله الرياضي إلى تقسيمات منطقية ضمّنها قوله: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازي بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما حتى يُقسم أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات..."[3]

إن تبني مثل هذا الرأي في منهاجنا الدراسية يكفل كثيرا من الإصلاحات في الممارسات التعليمية، ذلك أن معرفة المعلم لتلاميذه المختلفين عقليا وانفعاليا واجتماعيا، والمتفاوتين في استعداداتهم وميولاتهم –أقدار المستمعين– ومعرفته المقامات التربوية –أقدار الحالات– تُمكّنه من:

- تحديد واضح ودقيق للأهداف السلوكية المراد تحقيقها.
- تحديد حجم المعلومات والمهارات والخبرات التي يريد أن يوصلها لمتعلميه.
- تحديد طبيعة المادة الدراسية من حيث النظرية أو التطبيق، ومن حيث العلمية أو اللغوية..
- تحديد الطريقة والأساليب التي يتبعها في التدريس، والتي تكفل له تحقيق الأهداف المنشودة.
- ضبط الفصل والتحكم في جميع المواقف التربوية لإدراك الفروق الفردية وحالات المتعملين.
- إجراء تقويم يتصف بالموضوعية والصدق والثبات.

---

[1] - انظر، أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني** المجلد 10، ط4 ج3 (بيروت: دار الثقافة، 1973)، ص. 156.
[2] - ابن رشيق، المرجع السابق، ص 393.
[3] - الجاحظ، **البيان**، المرجع السابق، ص ص. 138-139.

وتعني البلاغة كذلك الإيجاز[1] الذي مرجعه الاكتفاء بالاختصار عن الإكثار. وقد نهج هذا المنحى "ابن المعتز"، لقوله: "البلاغة بلوغ المعنى ولم يطل سَفَرُ الكلام".[2] وهو في هذا يوائم "الجاحظ" في قوله: "أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه."[3] فإصابة المعنى بأقل لفظ ممكن، علامة دالة على البلاغة من منظور هذه الأقوال النقدية، غير أن إشكالات تُطرح مفادها: ماذا لو أن المقام اقتضى الإطناب والإطالة؟ وهل أن إصابة المعنى بكثير من الألفاظ يُجرِّد المتكلم بلاغته؟

يرى "إبراهيم" الإمام الراوية أن البلاغة هي الجزالة والإطالة.[4] وهو مفهوم يناقض التصورات السابقة، الأمر الذي يجعلنا نسحب شمولية مفهوم البلاغة من منظور الإيجاز. فلا يغدو المفهوم بهذا قاعدة صالحة لجميع المقامات الخطابية.

ثم يلي هذا كله الاحتكام إلى الاختيار الذي هو لب البلاغة. ويجمل الاختيار ما قبله من خلال الأسئلة: ماذا تختار؟ ومتى تختار؟ وكيف تختار؟ وتعني البلاغة في موضع آخر الصدق وعدم التصنع والتكلف من خلال قول "معاوية": "شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا."[5]

ويلتبس معنى البلاغة بمعنى الفصاحة في أكثر من مؤلف. إذ أن كثيرا من البلغاء والمفسرين والمعجميين يستخدمون مصطلح الفصاحة للدلالة على مفهوم البلاغة. فـ"ابن منظور" يرى أن البلاغة هي الفصاحة، وكذلك يراها صاحب "مختار الصحاح".[6] وفي هذا يقول "أبو هلال العسكري": "فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف أصلاهما؛ لأن كل واحد منها إنما هو الإبانة

---

1 ـ يقول "الجاحظ" في بيان مفهوم بيان الإيجاز: "الإيجاز حذف ما زاد عن الحاجة، دون لبس أو عجز أو صنعة أو تكلف مع قلة الحروف وكثرة المعاني". انظر المرجع نفسه، ص. 278.

2 ـ ابن رشيق، المرجع السابق، ص. 391.

3 ـ الجاحظ، **البيان**، ص. 38.

4 ـ ابن رشيق، المرجع السابق، ص. 390.

5 ـ الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص. 96.

6 ـ جاء في لسان العرب في مادة (بلغ): "والبلاغة: الفصاحة، والبَلغ والبُلغ: البليغ من الرجال. ورجل بليغ وبَلغ وبُلغ: حسن الكلام فصيحه".

عن المعنى والإظهار له".[1] وقد سبقهم إلى ذلك "الإمام علي" رضي الله عنه في قوله: "البلاغة إفصاح قول عن حكمة مستغلقة، وإبانة عن مشكل."[2]

يستمد هذا التوجه مشروعيته من أن الإبلاغ عما في النفس، إنما هو إفصاح وإعراب عن الخوالج، كما يستمد قول "الحسن" رضي الله عنه، المشروعية نفسها حين تغدو البلاغة "إيضاح الملتبسات، وكشف عوار الحملات، بأسهل ما يكون من العبارات".[3] وعليه فالبلاغة إيضاحٌ، من منطلق أن الإبلاغ يفيد الإيضاح أيضا.

وفي المقابل يرفض كثير من البلغاء هذا التوجه، ويضعون فواصل بين الفصاحة والبلاغة، ومن هؤلاء "ابن الأثير" الذي اعتمد معيار الخصوص والعموم في الموازنة بينهما. فالبلاغة بهذا المعيار أشمل من الفصاحة لاشتمالها على الألفاظ والمعاني.

وباستخدامه لمعيار الاختصاص يرى "ابـــن الأثـــير" أن الفصاحة تُطبَّق على اللفظة الواحدة بخلاف البلاغة التي هي صفة الكلام والمتكلم.[4] ويذهب "عبد القاهر الجرجاني" إلى ضد هذا الرأي، حين يرفض ربط الفصاحة باللفظة. لان الفصاحة في عرفه هي العملية العقلية التي تصنع تركيبا من عدة ألفاظ.[5] ولأن المقام لا يتسع إلى الإسهاب في التمييز بين الفصاحة والبلاغة، كما أننا لسنا بصدد البحث في الفروق بينهما، سنكتفي بعرض نص "أبي حيان التوحيدي" الفاصل بينهما، والذي يقول فيه: "الفصاحة خلوص اللسان من التعقيد والنغنغة،[6] والبلاغة تناهي المتكلم إلى

---

[1]- الرازي، **مختار الصحاح**، مادة (بلغ).
[2]- المرجع نفسه، ص.58.
[3]- العسكري، المرجع السابق، ص 5.
[4]- رجاء عيد، **فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور**، ط2، (الإسكندرية: منشأة المعارف، 1988)، ص. 17.
[5]- عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص ص. 42-53.
[6]- جاء في المعجم الوسيط في مادة (تغنغ): "تغنغ: أصابه داء في تُغنغه، والتَّغنغ: اللحمة في الحلق عند اللهازم، وما نتأ تحت منقار الديك كاللحية، وهو الورم أيضا في استرخاء. والنغنغة: اللحمة تكون في الحلق تحت اللهازم". إبراهيم أنيس وآخرون، **المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية**، ط2، القاهرة، ، 1972، مادة (تغنغ).

الإرادة. فقد تخلص ولا ينتهي وقد ينتهي ولا يخلص. فإذا جمع بينهما كان فصيحا بليغا".[1]

تقترن الفصاحة من منظور "أبي حيان التوحيدي" بالنطق، وعليه فتمام الفصاحة إنما يحصل ما لم يصب آلة البيان حبسة أو تعقيد. ويجد هذا الطرح مبررا له في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لسانا﴾.[2]

وترتبط البلاغة من المنظور نفسه بالقصد، إذ يمكن للمتكلم أن يكون فصيحا ولا يكون بليغا، كما يمكنه أن يكون بليغا ولا يكون فصيحا. فإذا سلم نطقُه وانتهى إلى قصده، كان فصيحا بليغا. ويُعدّ اجتماع الفصاحة والبلاغة في الذات المتكلمة نتيجة منطقية لما سبقها من فرضيات. ويقترن مفهوم البلاغة أيضا بالأدوات والإجراءات التي يتوسّل بها البليغ إلى البلاغة، وهي في الوقت نفسه موضوعاتها. وعنها يقول "الرماني": "أصل البلاغة الطبع، ولها مع ذلـك آلات تعين عليها، وتوصل للقوة فيها، وتكون ميزانا لها وفاصلة بينها وبين غيرها، وهي ثمانية أضرب: الإيجاز والاستعارة والتشبيه والبيان والنظم والتصرف والمشاكلة والمثل."[3] يتضح من الذي سلف، أن البليغ يتطبّع على البلاغة كما يتطبّع على سلوكات القوم الذين يعيش بينهم. وأنه ينفذ إلى كنوز البلاغة عبر أنفاق الإيجاز والاستعارة والتشبيه. وفي اقتران مفهوم البلاغة بالأدوات والإجراءات المؤدية للمعنى، يقول "السكاكي": "البلاغة هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدًّا له اختصاص بتوفية

---

[1]- أبو حيان التوحيدي، **البصائر والذخائر**، تحقيق أحمد أمين والسيد صقر، المجلد2،(القاهرة: دار المعارف، 1953)، ص.139.

[2] - سورة القصص، الآية 34.

[3] - أورد "ابن رشيق" هذا القول في "العمدة". غير أن ما جاء عن "الرماني" في مؤلفه "النكت في إعجاز القرآن" لا يطابق ما أورده ابن "رشيق". حيث ورد عن "الرماني": "البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ (...) والبلاغة على عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان". مما ينبئ أن "ابن رشيق" لم ينقل عن "النكت" فحسب. انظر، "ثلاث رسائل = في إعجاز القرآن" للرماني، والخطابي. وعبد القاهر الجرجاني، في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي، تحقيق وتعليق، محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ط4، (القاهرة: دار المعارف)، ص. 75 وما بعدها.

خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها".[1] فالمتكلم على هذا الأساس لا يختص بصفة البلاغة إلا إذا التزم بالقواعد التركيبية في توصيل المعاني، ولم يفرط في استعمال المجاز والتشبيه والكناية، بل ولم يحذق معايير استخدام هذه الأدوات. إن مثل هذا التصور قتل البلاغة حيث جعلها ميكانيكية، وحوّل وسائلها المتمثلة في الاستعارة والتشبيه والكناية... من وسائل مرنة إلى آليات لا يحق للمتكلم تطويعها في أدائه الكلامي. وبالتالي صدّت البلاغة تعدُّدَ القراءات. فالمتكلم يستطيع أن يجاوز الطابع المعياري للبلاغة، حينما ينزاح عن القواعد التي يُمْليها التركيب أو المعجم أو الدلالة. ومع ذلك ينتهي إلى الإرادة بوسيلة خطابية بليغة.

مفاهيم البلاغة المختلفة: هالة الحضور وإمكانات التطبيق ·

إن كل هذه المفاهيم البلاغية التي عثرنا عليها، استنادا إلى ما تمّ استنطاقه من النصوص القديمة، هي نتاج فكر له خصوصياته ومميزاته وتصوراته اللحظية، ووليدة زمن بعيد، وبيئة تختلف عن بيئتنا اختلافا كليا. وهنا نجد أنفسنا أمام مشكلات جوهريـــة نجملها في: ما هو المفهوم البلاغي الذي تبناه القائمون على بناء المناهج الدراسية في المنظومة التربوية الجزائرية؟ وهل توخوا التجديد؟ أم أنهم اكتفوا باجترار الماضي؟ وهل راعوا آن وضعهم لمفهوم البلاغة وفنونها المقصودة بالتدريس ما هو كائن؟ أم أنهم أغفلوه، وأبهرهم ما يجب أن يكون؟ فكرسوا أنفسهم ووسائلهم لخدمته، ولكأني بهم يسعون إلى تكوين أدباء وبلغاء؟

تقصينا مفهوم البلاغة في الكتب المدرسية المقررة في مرحلة التعليم الثانوي على سبيل المثال،[2] فوجدنا مفاهيم مختلفة ومتعددة.[1] أهمها أن البلاغة لغة تعني: بلَغَ

---

[1]- أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن علي السكاكي، **مفتاح العلوم**، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت)، ص ص. 175- 176.

[2]- لم أعثر في الكتابين المدرسيين "المختار في القواعد والبلاغة والعروض" للسنتين الأولى والثانية - وهما المرحلتان اللتان تدرس فيهما مادة البلاغة، بخلاف السنة الثالثة التي تُعتبر مرحلة استثمار المعارف البلاغية من خلال تدريس النصوص- على مفهوم البلاغة، حيث شرع المؤلفون في عرض الظواهر البلاغية بصورة مباشرة. وهنا أثير سؤالا: هل من البلاغة أن ندرّس طلابنا مباحث هذا العلم وفنونه التي هي في حقيقتها فروعه دون أن نبيّن لهم هوية الأصل وخصائصه المميزة؟

وأدّى، وأوْصل المعنى بصيغة من الصيغ التعبيرية. أما اصطلاحا فهي علم يؤدي المعنى بعبارة صحيحة، وفصيحة مؤثرة، وملائمة للمقام".[2]

يمكن الخلوص – إن نحن استندنا إلى المفاهيم المعروضة سلفا – إلى أن هذا المفهوم الذي عرض للبلاغة التعليمية ليس إلا استنساخا للمفاهيم التراثية، إذ يخلو من الجدَّة والإبداع اللذين يفرضهما الذوق والعصر. فالوظيفة الإبلاغية، ومعرفة الإعراب لضمان إنهاء جيّد للمعنى إلى قلب السامع، بُعْدان لُغويّان سبق إليهما القدماء. وأيضا بالنسبة إلى الأبعاد الاصطلاحية الداخلة في تكوين هذا المفهوم نحو صحة العبارة، والفصاحة، والتأثير، ومعرفة ساعات القول.

وبقراءة نقدية بسيطة للمفهوم يتسنى لنا القول إنه يفتقر إلى التحديد، نحو قوله "صيغة من الصيغ التعبيرية" دون أن يُحدِّد هذه الصيغة أو يُبيِّن طبيعتها وأحوال إيرادها كما يتّسم أيضا بالخلط الاصطلاحي والمفهومي والمنهجي. فالقول بعلمية البلاغة هنا، يجردها فنّيتها. كما أن هناك فرق بين البلاغة والفصاحة، وبين ملائمة المقام من حيث هي شرط من شروط البلاغة.

وتعني البلاغة أيضا "تأدية المعنى الجليل واضحا بعبارة صحيحة فصيحة، لها في النفس أثر خلاب، مع ملائمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه، والأشخاص الذين يخاطبون. فليست البلاغة قبل كل شيء إلا فنًّا من الفنون يعتمد على صفاء الاستعداد الفطري، ودقة إدراك الجمال."[3] لا يختلف هذا التعريف عن سابقه من حيث مضمونه.[4] وللإشارة فإن هذا المفهوم تعليمي؛ أي أنه مُوجَّه إلى تلاميذ المرحلة الثانوية. ولا أظنهم قادرين على فهم صفاء الاستعداد الفطري ودقة إدراك الجمال اللذين يعتمد عليهما فن البلاغة. وعليه نرى أن واضعا هذا المفهوم قد اعتمدا

---

[1]- يرجع الاختلاف والتعدد - في تقديري- إلى كثرة المرجعيات التي ينهل منها المعلمون في إيراد مفهوم البلاغة، وإلى تنوعها، من منطلق اقتقار الكتب المدرسية المقررة لهذا المفهوم.

[2]- وزارة التربية الوطنية، **كتاب الأعمال التطبيقية في النحو والصرف والبلاغة والعروض**، السنة الثالثة، جميع شعب التعليم الثانوي، (الجزائر: الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، 2000/1999)، ص.95.

[3]- علي الجارم ومصطفى أمين، **البلاغة الواضحة، البيان والمعاني والبديع**، للمدارس الثانوية، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، د.ت)، ص. 8.

[4]- ومرد ذلك إلى أن كتاب **"البلاغة الواضحة"** هو الذي اعتمد عليه القائمون على التأليف المدرسي في وضع المادة، البلاغية المقررة في السنتين الأولى والثانية ثانوي. كما أنه يمثل مرجعية أغلبية الأساتذة.

كغيرهما من المؤلفين – الذين اطلعنا على مؤلفاتهم – على تكرار المفاهيم البلاغية القديمة بشيء من التبديل اللفظي فقط.

منطلق الأمر في قضية الحال أن ثمة حقائق وجب مراعاتها آن وضع مفهوم إجرائي وآني للبلاغة التعليمية، نجملها في ما يلي:[1]

- لكل مفهوم زمانه وبيئته التي أنتجته. فالبلاغة التي نتباحث في مسائلها، وندرسها لتلاميذنا أنتجتها المقاربات والدراسات اللغوية والأصولية في زمن معين، ولمتلقين معيّنين، حين اتخذت لنفسها علوم البلاغة موضوعات للدراسة، لا موضوعات للتدريس.
- طالت آلة التغيير جميع مناحي الحياة بما في ذلك الذوق الفني والإدراك الجمالي. فاستُحدثت ألفاظ وهُجرت أخرى، وجدَّت أساليب وتُركت أساليب أخرى، وأنتجت نصوص جديدة تخالف النصوص القديمة شكلا ودلالة. فهل يحق لنا أن نكيل هذه الجدة بمكيال البلاغة القديمة؟ وهل يمكننا تفسير عدم إطالة التغيير لمفهوم البلاغة بعجز أدبائنا ومفكرينا على أن يأتوا بمفهوم من مثله؟
- صلاحية المفهوم، حيث يمكن أن تتشابه البيئات الثقافية والاجتماعية والسياسية... لكن هذا لا يشرع تعميم صلاحية المفهوم على جميع البيئات. فقد يصلح المفهوم في بيئة ولا يصلح في أخرى بالرغم من تشابه البيئتين.
- إن الكينونة البلاغية التي خلقها لنا السلف، وتضافرت في تكوينها عوامل تاريخية وحضارية وعقائدية وثقافية ولغوية، بصمة هؤلاء في التاريخ، تشف عن مرجعياتهم المعرفية، ونظرتهم للواقع، وتجاربهم في ذلك الردح من الزمن. فمن العبث إدراك هذه الكينونة دون إدراك عواملها وعناصرها المكونة.

---

1 ـ نتج عن إغفال هذه الحقائق نظرة قاصرة في مناهجنا الدراسية، مؤداها أن القواعد البلاغية تدرس لذاتها، وليست خوادم للبلاغة تساعد المتعلم على تذوق النصوص وإدراك المعاني. الأمر الذي حول الاستعمالات البلاغية إلى قواعد أشبه بقواعد النحو والصرف، يحفظها المتعلمون، ثم يطبقونها - إذا تسنى لهم ذلك- في نصوصهم و تدريباتهم تطبيقا آليا.

- مارس البلاغيون المتأخرون أمثال "ابن المعتز" و"أبي هلال العسكري" ومن حذا حذوهم تركيما بلاغيا نظريا، نتيجة الإسراف في التحديد والتفريع والتقسيم، وأغفلوا في المقابل الواقع ومن ثمة التطبيق.

خاتمة:

وصفوة القول ليس الذي سلف ترويجا لمصادرة التراث البلاغي، ولا تقزيما له، وإنما هو دعوة إلى إرساء بلاغتنا الحاضرة وفق ما يمليه زمننا وبيئتنا من ضرورات ومقتضيات دون التقوقع على التراث أو الإغراق فيه. فنحن اليوم في أمس الحاجة إلى مفهوم للبلاغة التعليمية يستفيد منه المعلم والمتعلم على حد سواء داخل الغرف الصفية وخارجها. وهو مفهوم يشتمل على الأهداف المنشودة من تدريس البلاغة في الواقع الصفي، وأساليبها التي هي أجزاء علومها، ويراعي التسلسل المنطقي في تنظيم عناصر هذا المفهوم، ويحيط بجميع مكونات الفعل التعليمي، ويتوقع ردود أفعال المتعلمين تجاه هذه المادة. فالإدراك الجمالي، والإحساس الفني ليسا مادتين نلقنهما للمتعلم، وإنما هما حالتان شعوريّتان، وتفاعلا وجدانيا. وعليه لا يمكن حصر هذا التقدير الجمالي والذوق الفني بين جدران الغرف الصفية. كما يبدو أيضا أن "بروكريست" قاطع الطريق اليوناني لم يعد حكرا على الأسطورة اليونانية، كما أن سريره العجيب لم يعد حكرا عليه أيضا. فالقائمون على بناء مناهج اللغة العربية في منظوماتنا التربوية توسلوا بسرير بروكريست، ومارسوا البتر والمَطَّ في المعرفة البلاغية القديمة، وضمّنوها كتبا مدرسية يكفي أن تذكرها للتلاميذ لتعرف في وجوههم السأم والضجر.

ببليوغرافيا:

1-إبراهيم، أنيس وآخرون، **المعجم الوسيط**. ط2، القاهرة: 1972، مادة (نغنغ).
2-إبرير، بشير. توظيف النظرية التبليغية في تدريس النصوص في المدارس الثانوية الجزائرية،
3-أبو إصبع، خالد. **نصوص تراثية في ضوء علم الاتصال الحديث**. عمان: دار آرام للطباعة والنشر، 2000.
4-التوحيدي، أبو حيان. **البصائر والذخائر**. تحقيق أحمد أمين والسيد صقر، المجلد 2. القاهرة: دار المعارف، 1953.
5-الأصفهاني، أبو الفرج. **الأغاني**. المجلد 10، ط4، ج3. بيروت: دار الثقافة، 1973.
6-الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. **الحيوان**. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ج1. بيروت: دار الجيل، 1996.
7-الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. **البيان والتبيين**. تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج1. بيروت: دار الجيل، د. ت.
8-الجارم، علي وأمين، مصطفى. **البلاغة الواضحة، البيان والمعاني والبديع**. للمدارس الثانوية، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، الجزائر، د.ت.
9-الجرجاني، عبد القاهر. **دلائل الإعجاز**. تحقيق السيد الإمام محمد رشيد رضا، بيروت: دار المعرفة، د. ت.
10- السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن علي. **مفتاح العلوم**. بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت.
11- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله. **الصناعتين**. تحقيق مفيد قميحة، ط 2. بيروت: دار الكتب العلمية، 1989.
12- عيد، رجاء. **فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور**. ط2، الإسكندرية: منشأة المعارف، 1988.
13- القزويني، الخطيب. **الإيضاح في علوم البلاغة**. تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ط3، المجلد 2، ج4. بيروت: دار الجيل، د.ت.
14- القيرواني، أبو الحسن بن رشيق. **العمدة في صناعة الشعر ونقده**. تحقيق النبوي عبد الواحد شعلان، ج1. القاهرة: مكتبة الخانجي، 2000.
15- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد. **الكامل في اللغة والأدب**. تحقيق تغاريد بيضون ونعيم زرزور، ج1، ط2. بيروت: دار الكتب العلمية، 1989.
16- المراغي، أحمد مصطفى. **علوم البلاغة، البيان والمعاني والبديع**. بيروت: دار القلم، د.ت.
17- ابن منظور. **لسان العرب**. المجلد 6، ط 3. بيروت: دار صادر، 1994.
18- الهاشمي، السيد أحمد. **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**. ط6، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.
19- وزارة التربية الوطنية. **كتاب الأعمال التطبيقية في النحو والصرف والبلاغة والعروض**. السنة الثالثة، جميع شعب التعليم الثانوي. الجزائر: الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، 2000/1999.
20- رسالة دكتوراه، غير منشورة، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة عنابة، الجزائر، 2000.
21- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن" للرماني، والخطابي. وعبد القاهر الجرجاني، **في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي**، تحقيق وتعليق، محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ط4، القاهرة: دار المعارف، د.ت.